ماري قرطام*

الروابط الاجتماعية ما بين التقليدية وما بعد الحداثة: حالة مخيم البدّاوي للاجئين الفلسطينيين في لبنان وشباب منطقة سان دوني الباريسية**

في الدراسة التي بين أيدينا، تم تحليل الروابط الاجتماعية وفق مقاربةٍ مقارِنةٍ ما بين مجتمعين، المجتمع الفلسطيني والمجتمع الباريسي، وخصوصاً مخيم البدّاوي للاجئين الفلسطينيين الواقع شمال لبنان، ومركز مدينة سان دوني الباريسية. الأول تقليدي محافظ، والثاني ما بعد حداثيّ، ومفرط ـ حداثي (Hyper-moderne). ولفهم طبيعة هذه الروابط الاجتماعية وتحليلها، قامت الكاتبة بدراسة سلوكيات شباب تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٣٠ عاماً، ضمن محيطهم في كلا المجتمعين، ودراسة معاني هذه السلوكيات لدى الشباب أنفسهم. وهذه الدراسة، كما توضح الكاتبة، تجريبية مبنية على مقابلات أجرتها المؤلفة مع شباب من المجتمعَين.

عند تعريفنا لمصطلح "الرابط الاجتماعي"، وفقاً لعلم الاجتماع، لا يمكننا تجاوز تونيز ودوركايم. فقد طرح تونيز مسألة تحولات الرابط الاجتماعي منذ سنة ١٨٨٧، بينما رصد دوركايم روابط التكافل الاجتماعي بغرض تحليل التغيرات الاجتماعية في كتابه: "في تقسيم العمل الاجتماعي" الصادر في سنة ١٨٩٣. وفسّر بوغام في كتابه: "الرابط الاجتماعي" الصادر في سنة ٢٠٠٨، صعوبة إدراك مفهوم الرابط الاجتماعي، مستنفراً لهذه الغاية أعمال كل من تونيز ودوركايم وسيميل وإلياس، الذين حللوا أغلبية العلاقات التي تربط الفرد بمحيطه الاجتماعي، مبيناً أنه كلما كانت الأوضاع التي يعيشها الفرد غير مواتية، ازدادت صعوبة نسجه علاقات اجتماعية مستقرة تضمن بدورها استقرار حياته.

ولهذا، يبدو لي أن كل رابط اجتماعي بحاجة إلى آليات دعم اجتماعية محددة لضمان ثباته، ومن أجل المشاركة في تلبية المتطلبات الرئيسية لرفاهية الفرد من طرف

* باحثة فلسطينية.
** هذه الدراسة هي نتاج رسالة دكتوراه في جامعة باريس ٧.
ترجمة: ريم الدبيّات.

الأفراد الآخرين، وأيضاً، أن كل رابط اجتماعي بحاجة إلى الدعم من جانب الآخرين، كي يضمن للفرد الاستقرار ويساهم في تلبية المتطلبات الرئيسية للعيش الرغيد. وبالنسبة إلى الكثيرين فإن العائلة هي الداعم الاجتماعي الأول، وعندما تنهار يصبح المرء عرضة للمشكلات والصعاب إذا لم يمتلك بدائل اجتماعية أُخرى.

في أيامنا هذه، يشير العديد من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي(Paugam 2008; Mendel 1998; Barus – Michel, Giust – Desprairies 1998) إلىوجود أزمة في الروابط الاجتماعية، تشكّل عرضاً للتحول الاجتماعي، وتهزّ القيم الخاصة في كل مجتمع. وفي هذا السياق، فإن التفاعل ما بين التقليدية، والحداثة، وما بعد الحداثة، والمفرط حداثي، يفرض تقلبات على الأفعال، أو ردات الأفعال، الملموس منها وغير الملموس على حدّ سواء.

هذه الأفعال، أو ردات الأفعال، الجماعية للشباب في الأوساط الحضرية، ربما تكون بتناغم أو بقطع مع مناطق ذات حساسية ثقافية، ومع الارتباطات والأفراد والجماعات. وبهذا المعنى يبدو الوسط الحضري فضاءً واضحاً، إلى حدّ ما، للعنف الضمني إلى جانب العنف الصريح. ويشكّل هذا العنف مصدراً لضغط غير منضبط قد يُمارَس على فئات من الشباب المضطرب. ومن وجهة نظر نفسية ـ اجتماعية، يمكن اعتبار ما سبق أسباباً محتملة لتحطيم فئات وجماعات محددة من الأفراد قد تسلك في بعض الأحيان سلوكيات عنيفة مدمِّرة.

حاولت في هذه الدراسة أن أحلل الروابط الاجتماعية في المجتمعَين الفلسطيني والفرنسي، وخصوصاً مجتمع مخيم البدّاوي للاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان، ومجتمع مدينة سان دوني في منطقة باريس. ويأتي الاهتمام بهذين المكانين من نيّة تحليل الروابط الاجتماعية من مستوى كلّي بمقارنة عالمية، لئلا يتوسع نطاق فهم وتفسير العمليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أو المؤسساتية مجتمعة، والتي تساهم في إجراء تحليل عام للروابط الاجتماعية بين مجتمعَين يُنظر إلى أحدهما على أنه ما بعد حداثي، وإلى الآخر على أنه لا يزال محافظاً وتقليدياً. وجرت دراسة الروابط الاجتماعية بالنظر إلى بيئة الشباب المباشرة، وإلى تفسيرهم لطبيعة هذه الروابط في محيطهم وضمن نطاق العائلة، ومن خلال علاقتهم بوالديهم وأشقائهم وشقيقاتهم، وبأصدقائهم وصديقاتهم. فما هي "السلوكيات العنيفة" التي واجهها الشباب في بيئتهم وأعاقت، بطريقة أو بأُخرى، تطوير مهاراتهم؟ وكيف كانت ردات أفعالهم؟

ترتكز هذه الدراسة على تحقيق قمت به كجزء من رسالة الدكتوراه التي أعددتها، وقد اعتمدت فيها على: ١) مقابلات مدتها ساعتان، كحدّ وسطي مع تسعة رجال وثلاث نساء تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٣٠ عاماً، يسكنون أو سكنوا في سان دوني، وقد التقيتهم على مدى شهرين ونصف شهر، منذ بداية تشرين الأول / أكتوبر إلى أواسط كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٧، وذلك في المقهى الثقافي للحي؛ ٢) مقابلات مع تسع عشرة امرأة واثنين وعشرين رجلا من مخيم البدّاوي للاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان، وقد دامت ثلاثة أشهر، بدءاً من أيلول / سبتمبر حتى كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٨.

يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في لبنان ٤٠٦,٣٢٤ لاجئاً، بحسب الأونروا، وهم موزعون على اثني عشر مخيماً والعديد من التجمعات، ويعيشون أوضاعاً غير مستقرة في مساكن تفتقر إلى الشروط الصحية، فضلاً عن وجود نسبة بطالة عالية. وفي استطلاع أجرته فافو (FAFO) (Ugland 2003, p 150) بشأن أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، تبيّن أن ١٥٪ فقط من اللاجئين في المخيمات والتجمعات مسجّلون بعقود عمل مع مشغّليهم،

أو حاصلون على رخصة عمل من الحكومة.

وتمّ في الأعوام الأخيرة اتخاذ إجراءات عديدة لمناهضة التمييز الاجتماعي ـ الاقتصادي ضد الفلسطينيين في لبنان، ولا سيما تلك المطالِبة بحق العمل والتملّك. وتَوّجت هذه الإجراءات التظاهرة التي خرجت الأحد ٢٧ حزيران / يونيو ٢٠١٠ للمطالبة بالحقوق المدنية والاجتماعية والاقتصادية للفلسطينيين، وللتنديد بالتمييز. وتلاها عدة مناظرات ما بين مختلف النخب السياسية اللبنانية والفلسطينية نتج منها في ١٧ آب/ أغسطس ٢٠١٠ تعديل في المادة ٥٩،[1] والفقرة ٣[2] من المادة ٩ من قانون العمل اللبناني. وعلى الرغم من هذا التطور في القانون، إلاّ إن شيئاً لم يتغير في أوضاع معيشة الفلسطينيين.

بدأت في سنة ١٩٧٠ عملية إعادة إعمار لمركز مدينة سان دوني بغية تحسين صورتها، فهُدمت جميع المنازل، بينما كان متوقعاً هدم ٨٠٪ منها. وانتهت هذه العملية في سنة ١٩٩٥، فجذبت المدينة بعدها الطبقة الوسطى التي وجدت فيها تنوعاً عمرانياً ومنشآت ثقافية (Raad 2009). وفي سنة ٢٠٠٩، أي بعد ١٥ عاماً، اتضح أن ذلك لم يكن أكثر من عملية إفقار لسكان مركز المدينة، وزيادة عدد قاطنيه من "المهاجرين" و"الطبقة العاملة".

وفي الاستطلاع المحلي الذي أجراه باتريك سالو وكريستيان بيلافوان، في سنة ٢٠٠٥، بشأن أسباب الإحساس بالاضطهاد، وانعدام الشعور بالأمان، في سان دوني، أشار الأهالي إلى أهم الأسباب المقلقة لهم، وهي: البطالة ٣٩٪، والفقر ٢٨,٩٩٪، وأخيراً الجنوح ٢٤,٩٪. وأظهر الاستطلاع أن حياة سكان سان دوني تتّسم بالخوف، ويختلف إحساسهم به بحسب الوضع: ١٥,٢٢٪ منهم يشعرون بالخوف وهم في منازلهم، بينما صرّح ٤٣,٩٤٪ أنهم يخافون عندما يكونون وحدهم ليلاً في الحي؛ فضلاً عن ذلك، فإن الخوف على أطفالهم أمر شائع جداً، وخصوصاً الخوف عليهم من الشارع (٨٠,٤١٪ ممّن شملهم الاستطلاع).

I ـ الروابط الاجتماعية، الروابط العائلية: بين الماضي والحاضر

يقود نظام تكافل "ميكانيكي" الروابط الاجتماعية في المخيم، وسط تقاليد صارمة (Durkheim 1967). فعلى الرغم من أن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية أنهكت العائلات الفلسطينية، فإن هذا التكافل ما زال قائماً، لكنه آخذ شيئاً فشيئاً بالتحول نحو التكافل "العضوي"، كما في مجتمع سان دوني. وأصبحت هذه الحالة مألوفة في يومنا هذا، لكنها لا تزال مقلقة لما تولّده من سلوكيات عنيفة في محيط الشباب المتأثرين بها.

ويغرق الشباب اليوم في تعقيدات المجتمعات المعاصرة: تقسيم العمل داخل البلاد وخارجها؛ التفاعلات الاجتماعية؛ التبادلات الاقتصادية والمحلية والعالمية؛ شبكات الاتصالات؛ إلخ.

يتم تعريف الفرد في المجتمع الفلسطيني انطلاقاً من قبيلته أو عشيرته أو قريته أو عائلته، إذ تشكل هذه الروابط الفكرة الجامعة للإنسان التي، على ما يبدو، ما زالت تقاوم ما بعد الحداثة التي هجمت أيضاً على العالم التقليدي. ويشتكي الشباب في البدّاوي من النمط الجديد من الروابط الاجتماعية المتزايدة الفردية على مستوى العائلات والأصدقاء والجيران. إن رغبتهم في الحياة هي رغبة جماعية، فمعاناتهم ومقاومتهم بحاجة إلى التكافل؛ فهناك، في المخيم، قد تذوي علاقات الحب والصداقة بسبب ضعف الدعم الاجتماعي، وربما تتلاشى بالتدريج في العزلة والهموم ومصاعب الحياة اليومية:

علاقات المودة عالم زائف، وكذلك العلاقات العائلية. صديقي، وصديقتي، وابن عمي،

وابنة عمي، لا يعنون شيئاً، وأنت تكتشف ذلك عند أول منعطف. إن أياً منهم لا يسعى لحلٍّ لكلينا، أنا جيد، أنت سيء. لماذا تحاكمونني؟ هناك تسابق للإحساس بالاضطهاد (طارق).[٣]

ويغذي الإحساس بالاضطهاد العنف في الروابط الاجتماعية، وكل شخص يسعى لجلد الذات كي يزاود في معاناته، فتصبح العلاقات أكثر سطحية، وتحلّ الريبة والشك محل الصدقية والنزاهة. وتنبثق "مجتمعات جديدة"، وتنقسم الانتماءات السياسية والعائلية ضمن خصوصيات مناطقية: "البارد"؛ "البداوي".[٤] ويُستبدَل المرجع الكلّي بمرجع مفرد:

سكان البارد مختلفون، حتى العائلات هناك تعاني جرّاء خلافات كثيرة. أمّا هنا، فالصداقة تميّز العلاقات، لكن هذا تغير بعد أحداث البارد؛ فأهل البارد يتحدثون بالسوء عنا، وعلينا أن نتكاتف (سلام).

وتدفع صعوبات الزمن الحاضر الشباب نحو تقديس الماضي، ويدور الحديث دائما مقارِناً الماضي بالحاضر:

يقال إن الماضي كان أقوى، أمّا اليوم، ومع صعوبات الحياة، فإن المرء ينعزل في عمله هرباً من المتاعب، وهو يفضّل هذه العزلة. والجيد هنا أن المرء يجد الجميع مستعداً لمدّ يد العون له إذا ما مرّ بضائقة (فادي).

كان هناك روابط اجتماعية متينة فيما مضى، أمّا اليوم فقد انفكت هذه الروابط. فمن قبل، لو كان هناك زفاف، فإن الناس كلهم كانوا يهتمون وكان الجميع يحضر، أمّا اليوم فالجار لا يعلم بزفاف جاره إلاّ في اليوم ذاته. حتى العلاقات العائلية لم تعد كما كانت (مالك).

إن الإدراك الانعكاسي للشباب الفرنسي يأخذ بعين الاعتبار تجارب الحياة اليومية بدلاً من الرجوع إلى السياقات الثقافية التقليدية التي ورثوها نوعاً ما، بينما يعتمد الشباب الفلسطيني تجارب بمرجعية تقليدية ثقافية على المدى القريب أو البعيد.

فالعائلة، بحسب تحليل علم البيئة (الإيكولوجيا)، هي عنصر وسط، يقع ما بين العنصر الأكبر (المجتمع، الأمم) والعنصر الأصغر (الفرد)، وهي تتقاطع معهما وتتأثر وتؤثر فيهما. وتُعتبر العائلة مؤسسة تنشئة اجتماعية، تتفاعل تبادلياً مع مؤسسات أُخرى، منها: المدرسة والجماعة المؤثّرتان في سلوكيات المراهقين. ويخضع الهيكل العائلي لتأثيرات ثقافية ومجتمعية وبيئية ـ اجتماعية، أمّا القوى العليا (المحلية والعالمية) فلديها تأثير خفي في هيكلية العائلات وسيرورتها.

وأشار الشباب، من الأرضيتين المشمولتين بالدراسة، إلى العائلة ودورها في تنشئة المراهقين الاجتماعية، فالتغيرات في الفضاء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمجتمع، أفضت إلى ظهور أشكال جديدة من العائلات. ولهذه التحولات العائلية الداخلية ارتباطاتها بالمستويات الأعلى التي أثّرت في عوامل السيرورة العائلية، مثل العنف والنزاعات المنزلية وكفاءات الوالدين. والسيرورات العائلية التي أشار إليها الشباب الذين شملهم الاستطلاع كانت: النزاعات الزوجية وعدم الاستقرار العائلي؛ مظاهر الأطوار الانتقالية ضمن العائلة؛ المجتمع الأبوي؛ التوتر الاجتماعي ـ الثقافي المؤثّر في النظام العائلي. ويمكن أن تجتمع هذه العوامل وتتوافق مع تطور سلوك عنفي لدى الأطفال.

عانت إيلودي، إحدى ضيفاتنا، سلوكاً عنفياً ـ ذاتياً، تلا خلافاً حاداً بين والديها أدى بهما إلى الطلاق، الأمر الذي أثّر في استقرار العائلة. وقد بدأ كل شيء عند إيلودي مع انفصال والديها، وكان ذلك يوم عيد الميلاد عندما شعرت بأن كل شيء تغيّر، إذ ذهب كل منهما للاحتفال بعيد الميلاد مع شريكه الجديد؛

وكانت، هي وشقيقتها، مجبرتين على الاختيار مع أي منهما ستذهبان. وأدى تفكك العناصر الوظيفية للعائلة، بشكل غير مباشر، إلى ظهور العنف عند الشابتين المدركتين لخصائص الحياة العائلية. وكانت الخيانة هي السبب الأساسي لخلاف أمها وأبيها، فكل منهما خان الآخر. وعانى الأب مشكلات كثيرة مع القمار، وأنفق أموالاً طائلة، وذات يوم قررت الأم الرحيل. وفي إثر ذلك أقامت إيلودي، وشقيقتها الصغرى وأمهما، ثلاثة أشهر في شقة جديدة، وكان عليها تغيير مدرستها؛ وبعد انقضاء الأشهر الثلاثة انتقلن مرة أُخرى إلى شقة قريبة من مسكن الأب، فعادت إلى مدرستها الأولى وبقيت فيها حتى التحاقها بالمدرسة الثانوية، وفي تلك الأثناء عاد الوالدان إلى العيش معاً، لكن منفصلين.

وتوافق عدم استقرار إيلودي المكاني مع عدم استقرارها النفسي، فعاشت في بيئة ضاغطة: أب يفقد أعصابه بسرعة، وأمّ غير قادرة على فهم الإشارات المرسلة من ابنتها. وبدأت المتاعب الدراسية مع إيلودي في الصف الأول الابتدائي عندما انفصل والداها، فغيرت مدرستها ثلاث مرات خلال عام واحد، الأمر الذي أخّرها كثيراً، وبمساعدة من والدتها نجحت بصعوبة في الصف الأول. وسارت أمورها الحياتية بشكل أفضل في الصفوف التالية: الثاني الابتدائي، والأول المتوسط، والثاني المتوسط. لكن الأمر لم يخلُ من بعض الصعوبات الدراسية، إذ رسبت في الصف الثاني المتوسط. وعند دخولها المدرسة الثانوية ساءت علاقتها بأمها، وفي السنة الثانية منها بدأت بالاستسلام، وظهرت لديها مشكلات سلوكية قادت شيئاً فشيئاً إلى مشكلات دراسية، فتلقت توبيخاً من المدرسة بسبب تغيّبها عن حضور الدروس، ورسبت في صفها. وأخيراً في الصف الثالث الثانوي، وكان عمرها ١٧ عاماً، توقفت تماماً عن ارتياد المدرسة. لقد كانت إيلودي تبحث من خلال سلوكها عن سلطة ورقابة وانتباه من أب غائب، أمّا الأم اليائسة من حالة ابنتها فلم تعد تقول شيئاً.

رأينا في حالة إيلودي أن تاريخها العائلي لم يمنحها أسباب النجاح في مواجهة مصاعب الحياة، فبحثت عن دعم عاطفي غير صريح، ودعم مادي أو مالي، ودعم يجعلها تقدّر ذاتها. وبعد فترة قصيرة من إيقاف إيلودي لدراستها وجدت الدعم العاطفي، إذ وجدت صبياً منحها الثقة بالنفس، وبفضله عادت إلى الدراسة وشقّت طريقاً جديداً في الحياة. كان رفيقها الجديد هو طوق النجاة الذي تشبثت به بكل ما أوتيت من قوة، وكان في بداية الأمر صديقاً كباقي الأصدقاء، لكنه تحول في نهاية المطاف إلى شخص انصهرت فيه كلياً، وبفضله تمكنت من السيطرة على حياتها من جديد، فقررت التخلي عن تعاطي الكحول، وساعدها الحمل على اتخاذ القرار.

إن حصول إيلودي على الدعم العاطفي لا يعني أن الحياة خلت من المشكلات تماماً، إلاّ إنه أعطاها القدرة على تجاوز الصعاب. فالإلفة تمنح القوة في السرّاء والضرّاء، وفي حالة إيلودي، كانت الإلفة عونها في الضرّاء:

> انفصلنا بعد شهر، وكان الأمر أشد قسوة بكثير مما تخيلته، ومع أنه كان يغضبني كثيراً، في بعض الأحيان، فالحياة معه ليست أسهل مما هي عليه بدونه، وعلى الرغم من كل شيء فإن عدم وجوده أمر قاسٍ جداً، أجل أنا أحتاج إليه.

إن الحاجة إلى أن تحب وأن تكون محبوبة أرضتها لفترة ما، لكن كما يقول المثل: "لا يستطيع المرء أن يعيش على الحب والماء العذب"، فبدأت الخلافات تدبّ بينهما. وعلى أي حال يظلّ حالها معه أفضل كثيراً من المحنة المزدوجة التي كانت اختبرتها.

في غياب الدعم الاجتماعي من أبويها، عاشت إيلودي فجوة اجتماعية هائلة ترجمتها من خلال سلوك تدمير ذاتي. وكانت ردة

فعلها عنيفة على انفصال أبويها الذي جاء في فترة كانت شخصيتها المستقبلية قد بدأت بالتشكل متأثرة بهما. ففي هذه المرحلة من تشكّل "الأنا" كانت إيلودي تبحث عن الحنان والرعاية والإشراف من أبويها، وقد أثّرت طريقة تعاملهما مع خلافاتهما في رؤيتها إلى الحياة وإحساسها بها. ودفعها هذا القصور "العلاقاتي" المبكر إلى البحث عن أحاسيس جسدية مؤلمة، ضمن عملية التدمير الذاتي التي انتهجتها. وكان هذا العنف المدمر طريقتها الوحيدة للوصول إلى إحساسها بوجودها؛ وتجلى من خلال "الاندفاع الأعمى نحو الرضى، واسترداد توازن داخلي منهَك بالحاجة والحرمان" (Barus - Michel, Giust - Desprariries 1998, p 2).

وأدت مهارات الأبوة والأمومة لقاطني سان دوني والبدّاوي دورها، فالرقابة وآليات الانضباط والالتزام وإسداء النصائح، تأثّرت كلها بالضغط الاجتماعي ـ البنيوي على العائلة، وبانعدام الاستقرار وبالفشل.

لقد اعتُبرت العائلة، تاريخياً، ملاذاً آمناً، هادئا وخالياً من الاضطرابات، يمنح الحماية ويشكّل درعاً في وجه القوى العنيفة الهائجة في العالم الخارجي، لكن حقيقة وجود العنف ضمن العائلة كثيراً ما تُحطّم هذه الصورة الوادعة ظاهرياً، والمفككة أصلاً تحت ضغط التوتر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كما في حالة عائلات اللاجئين الفلسطينيين منذ أكثر من ٦٠ عاماً، إذ أصبح الصمود والمقاومة، ضمن الأوضاع المحلية والدولية، مهمة مستحيلة.

ودائماً في حالة الانتظار التي تعيشها العائلات الفلسطينية، فإنها (العائلات) تعطي حق العودة الأولوية، وتنسى الحياة اليومية التي لا تعني لها أكثر من كونها مجرد تفصيلات. وخلال حديثنا مع الشباب الفلسطيني لاحظنا أنهم ألقوا المسؤولية على عاتق الأم، إذ تساءلوا: "أين هي الأم؟" فهي، برأيهم، المسؤولة عن تربية أبنائها، وهم لا يحمّلون الأب الذي نادراً ما تم ذكره عند نقاش موضوع التربية، أي مسؤولية. فالعدد الكبير لأفراد العائلة الذين يعيشون معاً في منزل واحد، والتعامل معهم بشكل جماعي، وغياب الخصوصية الفردية، أمور كلها تعقّد عملية توزيع الأدوار، وهو ما يضرّ كثيراً بأصول التربية القائمة على الاحترام.

إن كيفية الحياة العائلية تؤثر في العلاقة ما بين التوتر الاجتماعي ـ الاقتصادي، وسير أمور العائلة. ومن الواضح أن نقص الموارد المالية يفرض التوتر على أداء العائلة، وعلى الرغم من ذلك فإن تأثيره في التربية يتغيّر جرّاء التصورات الفردية أو العائلية، واحتراماً للأوضاع السائدة. وهكذا فإن المواقف والممارسات التربوية قد ترتبط برضى الوالدين عن العمل، والموارد الاقتصادية التي تنجم عنه، كما أن التجارب الذاتية تؤدي دوراً مهماً في الربط المؤثر بين التوتر الاجتماعي ـ الاقتصادي ونوعية التربية والإساءات العنيفة (Vondra 1986).

رأى كثير من الشباب أن طريقة التربية المتبعة عند أغلبية العائلات في المخيم هي طريقة بدائية، إذ إنها تفتقر إلى سياسة تربوية تولي الاهتمام للتطور النفسي للطفل، وكل عائلة تتبع طريقتها الخاصة في التربية. وقد رأى بعض أولئك الشباب أن هناك آباء غير مؤهلين، ولا يفقهون شيئاً عن تطور شخصية الطفل وأسسها.

يؤدي الضغط المترافق مع انعدام الأمان الاقتصادي والفقر إلى التفكك العائلي، أكان ذلك طلاقاً أم انفصالاً، وهو يحدّ أيضاً من كفاءات الأهل. ففي سان دوني، يدرك الطفل مبكراً أن عليه أن يعيل نفسه، بل عائلته أيضاً، ويُجبَر على فعل ذلك بطرقٍ جميعها غير شرعي، فالعائلة الرازحة تحت ضغط الحاجة والعوز لن تسأل طفلها عن مصدر المال الذي يجنيه. وهذه كانت الحال في عائلة جيرارد،

لكنها ليست كذلك في عائلات أُخرى، كعائلة غريغوري ذات الأصول المهاجرة والأحادية العائل، إذ إن الأم تعمل وحدها عملاً شاقاً كي تعيل عائلتها وتضمن تعليماً جيداً لأطفالها الذين عرفوا معنى تحمّل المسؤولية باكراً، وأدركوا قيمة العمل، وتمكنوا من تجاوز العقبات.

ومع حالة الركود الاقتصادي شحّت الموارد التقليدية للعائلة، وأصبح التوفيق ما بين متطلبات العمل وواجبات المنزل أمراً أكثر صعوبة. وقلّصت هذه التوترات الوقت اللازم تخصيصه من طرف الوالدين للإشراف على أطفالهم والوجود بقربهم، وانتهى الأمر بارتفاع ملحوظ في عدد الأطفال المتروكين بمفردهم والمسؤولين عن أنفسهم، وهناك أطفال يعودون إلى البيت من مدارسهم قبل وصول ذويهم. وبالنتيجة لم يعد الأبناء يتلقون النصائح من أبويهم أو ينعمون بدفئهم أو يتلقون دعمهم، لقد فقدوا كل ما من شأنه أن يحميهم.

وفي سان دوني، تظهر مشكلة تربوية مضاعفة عند أطفال العائلات من أصول مهاجرة، وخصوصاً العائلات التي تميّز الصبيان كثيراً، وتعتبرهم الأطفال ـ الملوك الذين يعيشون في كنفها، وأن من واجب بقية أفرادها خدمتهم. ولذلك عندما يواجه هؤلاء الأطفال العالم الخارجي ومتطلباته، فإنهم يضيعون تماماً في الفجوة ما بين الداخل والخارج. ومن جهة أُخرى، فقد أتت هذه العائلات إلى فرنسا هرباً من الفقر والبؤس في أوطانها، وأملاً بضمان حياة أفضل لأطفالها، لكنها وجدت أنفسها تواجه الذل والمهانة. وهكذا لن تتم التربية من دون المرور بهذه المعاناة التي يتأثر بها الطفل بشكل لا واعٍ فتؤثر في هويته ومكانته الاجتماعية.

تشكّل العائلة إحدى مؤسسات النظام الرمزي، وهي توجّه السلوكيات وتتحكم في "التصورات، والطموحات، والأوامر، والمغريات باختيار هذا الطريق أو ذاك، أو باتباع سلوك محدد" (De Gaulejac, in Mercier, Rhéaume 2007, p 51). ويتولد الإحباط وينمو عند الطفل في اللحظة التي يدرك فيها "أن والديه عاجزان ومقهوران بسبب فقرهم، وأن غيره من الأطفال أكثر حظاً منه، وأن الآخرين يرسلون له صورة سلبية عن نفسه، يبنونها انطلاقاً من نظرتهم إلى أسلوب حديثه وحياته وعاداته. وذلك كله يُحدث عند الطفل نقصاً باعتداده بنفسه" (De Gaulejac, in Mercier, Rhéaume 2007, p 51).

انغمست صوفيا[٥] وميريام[٦] منذ الصغر في الثقافتين الفرنسية والجزائرية، وتشكّلت هويتهما وفقهما في مجتمع حديث ذي "تمايز هيكلي وثقافة علمانية"؛ مجتمع يهتم بتطوير أفراده و"يجعلهم يلجون النور والكونية، أي باختصار، يعتقهم ويحررهم" (Lapeyronnie, in Beaud, Confavreux, Lindgaard 2006, p 526). وقد شكّلت عائلتيهما نموذجهما التربوي الخاص والمختلف عن ذاك الذي تفرضه الحكومة الفرنسية بهدف نجاح المهاجرين في الاندماج. ونقل أهل صوفيا وميريام لهما اعتقادهم أن الحكومة الفرنسية تسعى، عن طريق المدرسة، لسحق تقاليد المهاجرين وموروثهم العاطفي بغية تحريرهم.[٧]

ويؤثّر الوالدان كثيراً في قدرة تنقّل الشباب الاجتماعية، وفي معظم الأحيان، من خلال تغذية الانتقادات الرئيسية الموجهة نحو الأنظمة التعليمية الحديثة في المدارس (Bourdieu, Passeron 1970). ويفرض هذا التفكير، في الوقت ذاته، إمكان تطبيق نظرية الحواجز على قدرة التنقل الاجتماعية. ويمكن النظر إلى "التنقّل" هنا على أنه "نمط حياة" مؤسس للشباب المضطرب، إذ إنه حركة أفعال وإجراءات عملية، وحركة توجيه مسار حياة الأفراد والمجموعات، وخصوصاً الشباب المهمَّش، بغية إخراجهم من الهامش. لكن لا يمكن لإقحام موضوع التعليم أن يكون مطلقاً، فالفكرة القائلة إن التعليم يعيد إنتاج البنى

الاجتماعية والمهنية من خلال تطبيق إجراءات قمعية على أطفال الطبقات الشعبية، تبدو في وقتنا الراهن فكرة مبتذلة، على الرغم من صحتها، ولا سيما، عندما يتعلق الأمر بمظالم الانتخاب المدرسي؛ فبوجود الفرز الطبقي ينشأ التفاوت ضمن النظم الاقتصادية والسياسية، وقد يتسبب الفرد نفسه بهذا التفاوت، عبر النظام العائلي أو الطائفي، أو عبر المجتمع ككل. وتؤدي الحكومة في المجتمعات الحديثة دور الواعظ ، فتحلّ محلّ الطائفة والدين في المجتمعات التقليدية.

الثقافات والاختلافات

يأتي المهاجرون حاملين ثقافاتهم الخاصة، فيجدون أنفسهم وجهاً لوجه مع ثقافة المجتمع المضيف، ويخضعون لعملية تكيّف وإعادة تأهيل تسهّل حياتهم وتيسّر شؤونهم في التعاملات اليومية. ومع أن سياسات الهجرة في فرنسا تتطلع إلى استيعاب المهاجرين بشكل كلي، وعدم الاكتفاء بالتأقلم، إلاّ إن هذا التلاقي يولّد ثقافة "فصامية" عند الأطفال الذين يعيشون ثقافة العائلة الأصلية الحاضرة ببساطة داخل المنزل، ويعيشون في الوقت نفسه ثقافة المدرسة التي ترفض التعددية والتنوع. ففي فرنسا المدرسة هي المؤسسة الأساسية التي تزرع الأخلاق الجمهورية الجذرية الجامعة التي تحقق تماسك الأمة وترابطها، ومن هنا تأتي أهمية علم التربية في تحقيق التوازن ما بين الأخلاق الفردية التي يغرسها الآباء في نفوس أبنائهم، والأخلاق الجماعية التي تعلّمهم إياها المدرسة.

يعيش الطفل إذاً في عالمين مغلقين: العائلة والمدرسة، وكل منهما يحاول غرس قيمه الخاصة فيه، ولهذا يصبح تأمين عالم مفتوح للطفل يضمن تكوين شخصية متماسكة، ضرورة أخلاقية، لكن الأهل عادة، يفتقرون إلى الوسائل لتعليم أطفالهم بطريقة ملائمة. أمّا الحكومة فتشترط إتقان المهاجرين الجدد إلى فرنسا اللغة الفرنسية، لكن هل هذا كافٍ؟ ترى صوفيا أن هذا الشرط مشروع، إلاّ إنه لا يشكل أي أهمية؛ فعندما وصلت والدتها إلى فرنسا لم تكن تتحدث اللغة الفرنسية، لكنها سرعان ما تأقلمت مع ثقافة البلد. وربما يكون مجدياً أكثر وضع برامج داعمة، لمساعدة الأهل في تعليم أطفالهم.

لا أحد ينكر أهمية إتقان لغة البلد المضيف، لكن يجب أن يكون هذا ضمن أخلاقيات العيش المشترك، وليس لأهداف سياسية تجعل الأمر شرطاً لدخول البلد. ومن البديهي أنه مع غياب اللغة المشتركة يصبح تبادل المعاني، وهو القيمة الرمزية للّغة، محدوداً جداً. فمشكلة اللغة تفرض نفسها ضمن فئات الأوساط الشعبية، ذلك بأن العائلات الغنية التي قررت الهجرة، لسبب أو لآخر، إلى بلد لا تتقن لغته، تستطيع تدبّر الأمر، وتوظيف جميع الوسائل الممكنة لتحقيق التواصل. وقد أشارت ميريام[8] إلى وجود هذه المشكلة عند أطفال الأوساط الشعبية، الذين يجدون أنفسهم مضطرين أحيانا إلى مرافقة ذويهم والترجمة لهم ومساعدتهم على التواصل. لقد انقلبت الأدوار هنا، فالأطفال أصبحوا معلّمي لغة ووسطاء ثقافيين.

مرّ برنارد، وهو شاب من سان دوني، بكثير من الصعاب في حياته منذ طفولته، وأظهر سلوكيات عنيفة منحرفة، ووصل به الأمر إلى حدّ الجنوح، فأُدخل السجن. لقد انتقلت معاناة والديه إليه، لكنه لم يستطع تحمّلها، فكانت حاضرة في حياته وسيطرت على أفعاله وجعلته يتمرد، ولم يكن يعرف كيف يتصرف. ومع تقهقرها روى لنا:

> أعتقد أنه، وكي يتطور الطفل بسرعة، يجب إبعاده عن مشكلات الكبار منذ البداية، فهي تقلقه. لقد عشت التجربة بنفسي، فمنذ طفولتي رأيت معاناة والديّ، ولمست حجم المشقات الكثيرة التي تكبّداها كي

يتدبرا معيشتنا ونظل بخير، ونأكل ما نشتهي. كنت أرى جيداً مدى شقائهما. قبلاً كنت محروماً، وعندما طلبت يوماً شاحنة كتلك التي رأيتها مع أحد رفاقي لم أحصل عليها، وكانت ثيابي رثّة، فدَخْل والدي من عمله كان ضئيلاً، وكنا نعيش فعلاً تحت خط الفقر. كنت نادراً ما أرى والدي، فهو يخرج إلى العمل طوال اليوم ويعود متأخراً جداً، ولم ألمس نتيجة عمله على حياتي ورفاهيتي المتواضعة، وإنما كنت أدّعي أن والديَّ أعطياني المال لأدفع تكاليف الإجازات. كما ترين، كنت مجبراً على الكذب من أجل المخيمات الصيفية. وهناك كثير من الأمور التي كنت أتولى ترتيبها بنفسي كي أكون مثل الآخرين (برنارد).

اليوم، تجاوز برنارد هذه المرحلة،[٩] وتكاملت حياته الاجتماعية والاقتصادية، فأصبح مثال المواطن الصالح الذي تعلّم من تجارب الحياة، فامتلاكه المقومات المالية والثقافية والعاطفية عزّز صموده أمام إجراءات الاندماج، وقد توحدت جميعها خلال سنة العقوبة التي أمضاها في إفريقيا عند عائلة والده، إذ إنه تعلّم هناك القيم الحقيقية للأشياء. وسمح له هذا على المدى الطويل بأن يعيد رسم صورة إيجابية عن نفسه من خلال تعبيره عن الصعوبات التي واجهها، والمشكلات التي عاشها. لقد استحق برنارد هذه الصورة التي كثيراً ما بحث عنها، إنها هديته لأبويه قدّمها لهما بعد مسار جنوحه الطويل.

II ـ العنف الجسدي في التربية: قسوة أم حاجة؟

تُستمد الحساسية الفردية للسلوكيات العنيفة من عوامل عائلية خاصة تتشكّل ضمن مناخ اجتماعي ـ ثقافي، وبصورة خاصة قد تتشكل نماذج سلوكية تساهم في العنف، ويتم تعلّمها ضمن البيئة الاجتماعية للعائلة (Walker 1986). وهناك ثلاثة مسارات مهمة مرتبطة نظرياً بالممارسات العنيفة، وذلك بحسب علم الأسباب: ١ـ النزاعات والعنف العائلي، كالعنف ضد المرأة، وسوء معاملة الأطفال، والخلافات الزوجية؛ ٢ـ مهارات التربية والتعليم، والإجراءات التأديبية المتخذة بحق الأطفال؛ ٣ـ الروابط والعلاقات غير الكافية. إن دراسة عوامل تأثير الاستعداد الفطري في الميل الشخصي إلى العنف، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار تأثيرات الوساطة المهمة، للأوساط خارج العائلة، في تشكيل النماذج السلوكية. وتشكّل سلوكيات الوالدين نموذجاً يحتذيه أبناؤهما في مرحلة الطفولة، إذ قد يفهم بعض الأطفال أن سلوك والديهم العنيف، عندما يغضبان أو عندما يختلفان فيما بينهما أو عندما يتعرضان للمشكلات، هو سلوك طبيعي ومقبول (Strauss 1991). أمّا فيما يتعلق بالعنف الشخصي لدى الشباب، فإن الانتماء الثقافي والمكاني والظرفي، يشترط لاحقاً الإجراءات العملية الأولى للتواصل الاجتماعي. وانتقال الإساءات العابر للأجيال، يفترض أن الأطفال الذين تعرضوا لممارسات عنيفة سيتّبعون، أنفسهم، سلوكيات عنيفة لاحقاً باعتبارهم بالغين.

وتتغير بنية العائلة بحسب الثقافة والحقبة التاريخية. ففي البدّاوي، انقسم الشباب ما بين مؤيد ومعارض لاستخدام الشدة في تربية الأطفال، لأنهم كانوا، في معظمهم، ممّن عانوا جرّاء القسوة، وإن بدرجات متفاوتة، والبعض منهم يراها مفيدة، بل ضرورية، من أجل فرض الهيبة. لكن التنبيه إلى قواعد النظام عبر صفعة خفيفة أو ضربة على المؤخرة، لا يعني أن يتم تعذيب الطفل كي يتربى، فحدود العنف، برأيهم، ترسمها الفائدة المرجوة منه لمصلحة الطفل، والعنف سلوك مشروع عندما يكون له هدف موجِّه، وهو ضروري من أجل فرض

السلطة، وفاعل في حلّ النزاعات وإعادة فرض السيطرة وتحقيق التوازن. وقد طالب القسم الأكبر من الشباب الفلسطينيين بهذا النمط من التربية، لأن القسوة بالنسبة إليهم ضرورية دائماً.

لم يدعم الشباب استخدام العنف إلاّ في الحالات التي تستوجب وضع حدّ للطفل، عندما لا يُجدي الكلام نفعاً، وذلك ضمن آليات تحفظ كرامته واعتداده بنفسه، وبحيث لا تتم إهانته أمام أقرانه، وألاّ يكون تعنيفه تنفيساً فقط عن غضب الوالدين. فمن غير المقبول استخدام الشدة ما لم تكن في الإطار التربوي، والأهل الذين يصفعون أطفالهم ويهينونهم في الشارع على مرأى من الجميع، مدانون تماماً من طرف هؤلاء الشباب، مهما تكن الذريعة. وللأسف فإن هذا الأمر شائع جداً في المخيم، والعنف في هذه الحالة يكون السبب في تدمير الأطفال وفقدان ثقتهم بأنفسهم. فكثير من الآباء هناك يمارسون عنفاً وحشياً على أبنائهم، الأمر الذي دفع الشباب إلى التساؤل: هل يستحق مثل هؤلاء أن يُسمّوا آباء؟

نور أمّ شابة تعي تماماً مدى عنفها في التعامل مع ابنتيها، وهي صارمة جداً مع ابنتها البكر، وكثيراً ما تضربها. وكي ترتاح من مسؤولياتها العائلية فإنها ترهق ابنتها بها، فهي لا تراها طفلة، وليس في إمكانها القيام بغير ذلك، فالأشغال كثيرة وهي تعتمد عليها، ولم يعد من خيار أمام الطفلة سوى الالتحاق بوالدتها والعمل معها منذ الصباح البكر. نور تعيد إنتاج تجربتها، فهي الابنة البكر في عائلتها، وقد حمّلتها والدتها المسؤولية مبكراً جداً، ومع أنها لا تشعر بالرضى عند ضرب ابنتها، وتعرف أن هذا سيؤجج غضبها أكثر، إلاّ إنها تضربها وتشعر بالحاجة إلى فعل ذلك.

ونور مثلها كمثل كثير من الأمهات اللواتي يحتجن إلى التنفيس عن غضبهن، ويجدن أن أسهل طريقة لفعل ذلك هي ضرب أبنائهن الذين يصبحون العزاء لهن أمام العنف الذي يتعرضن له بدورهن. غير أن نور تختلف عن سواها بكونها تعي حالة العنف التي فرضتها على حياة أطفالها، وتدرك في الوقت ذاته معاناتها الشخصية، وتعلم أنها تسعى لمشاطرة الآخرين توترها، لكنها لا تجد أمامها إلاّ هذا السبيل:

> يحدث ذلك بسبب التراكمات والأشياء الكثيرة التي لا نستطيع البوح بها، أو لا نستطيع التعبير عنها. أعود أحياناً من عملي متعبة وغاضبة، فإذا ما وجّه أحدهم الحديث إليّ في المنزل، تنتابني الرغبة في ضربه. ليس هو المعنيّ بذاته، لكني أُسقط عليه صورة مَن أغضبني في العمل. وبرأيي، إذا تقيّد المرء بتقديم ما هو مطلوب منه ضمن إطار علاقاته، فإن كل شيء سيسير على ما يرام، لكن ذلك لا يحدث، ولهذا ينشأ العنف. ولأنني أضعف من الشخص الذي أغضبني، أجد في طفلتي الصغيرة أمامي متنفّساً لغضبي، فهي أشد ضعفاً مني (نور).

ترجمت نور غضبها بالعدوانية، إنها الردّ الذي لا يمكن السيطرة عليه، لكن يمكن تعلّمه واستحضاره عند التعرض للإهانة، والتنفيس من خلاله عن المعاناة وعن جميع المشاعر السلبية الناجمة عن الإحساس بالدونية في مكان عملها، إذ تقوم بتوجيه هذه المشاعر خارجها في اتجاه أطفالها. لا تقبل نور بالإهانة، ولا بالإحساس بالدونية كأمر مشروع، لكنها تتعرض لهما على الرغم منها، وقد ولّد هذا عندها شعوراً بالحقد تجاه مَن يتسلط عليها، زوجها أو مديرها، لكنها في المقابل توجّه عنفها اللفظي والجسدي نحو أولئك الضعفاء الحاضرين أمامها، الذين تستطيع التغلب عليهم، أي أطفالها.

لقد أصبح هذا السلوك نمط تعامل دائماً، وهو حلقة مفرغة دخلتها نور ولم تستطع

الخروج منها:"أنا ضحية للعنف، لكنني بدوري عنيفة، ولا يمكنني أن أكون إلاّ كذلك. إنها عادات تعلّمتها لتفريغ طاقتي" (نور). أمّا علاقتها بزوجها فتدار بنمط سلوكي عنيف:

> تجعلك العادة لا تفهم إلاّ عن طريق العنف، فعلى سبيل المثال، أنا معتادة أن يغضب زوجي بعنف، وقد يكون في قدرته أن يغضب وأن يعبّر عن غضبه بهدوء، لكني إذا لم أشاهده يعبّر عن غضبه بالعنف وتوجيه الإهانات والصراخ، فإني لا أصدق أنه غاضب فعلاً (نور).

سميرة أمّ شابة أُخرى، اشتكت عندما التقيناها من أصغر أبنائها الذي وصفته بأنه عنيف جداً. وتعبيره الواضح عن عنفه حثّها على تحليل سلوكه، وتوصيفه بأنه عنف ناجم عن المعاملة السيئة، اللفظية والجسدية، التي يتعرض لها من طرف والده. وفي محاولة لتغيير سلوكه، يتعامل المحيطون به على اعتباره رجلاً لا طفلاً، ويحمّلونه المسؤولية، وهو بدوره كي يكسب محبتهم ويعيش بطمأنينة معهم، اعتمد سلوكيات تتوافق وتتفاعل مع رغباتهم. فهذا الطفل، وفي وقت مبكر جداً، شكّل داخله صورة عن نفسه من خلال علاقته بالآخرين، وهي صورة شكّلها الآخرون، وأعاد بدوره إظهارها لهم، ثم تطورت رؤيته إلى نفسه انطلاقاً من الضغوط التي يمارسها محيطه عليه، والضغوط التي يتعرض لها هذا المحيط بدوره. ووصفت سميرة ابنها بأنه "همجي"، و"عنيف"، و"رقيق" في آن واحد، وهذه الشخصية المتناقضة فريدة في رأيها، وتستحق أن تُسجّل على مستوى المنظمات الاجتماعية. إنه متوافق مع الشكل العام لمجتمعه، وكي يأخذ مكانته فيه أراد الأب أن يتدخل في تربيته، علّه يجعله يأخذ مكانة مختلفة عن تلك التي أخذها الابن البكر الذي أفرط في تدليله فلم يكتسب شخصية قوية. أراد الأب ابناً يشبه الصورة المثالية التي كوّنها عن نفسه، وعندما خاب أمله بابنه الأول، قرر أن يتولى بنفسه المسؤولية عن الثاني.

نلاحظ من خلال هاتين الحالتين، أن أفراد العائلة كانوا مرتبطين بروابط اتكال، أو خضوع، وقد اجتمعت سيطرة الأب على باقي أفراد عائلته مع الطاعة المفروضة على الأطفال تجاه الأبوين، والتي تساهم، مع عوامل اجتماعية أُخرى، في إنتاج نظام سيطرة منذ الطفولة المبكرة، ذلك بأن بنى السيطرة الطويلة الأمد لنظام عائلي ينفرد وحده بالتأثير في الطفل، ما كانت لتستمر إلاّ ضمن جماعة لا تتطور، أو تتراجع ، وهي ليست الحال في أي من جماعات هذه الأيام. ففي البدّاوي، العنف العائلي الذي يمارسه الأبوان على الأطفال هو عنف جسدي، وفي حالات نادرة يكون عنفاً مؤذياً وغير إصلاحي ومثيراً للاشمئزاز. وهذا الشكل من العنف هو ردة فعل من أفراد العائلة على المجتمع ككل.

ومع أن عملية التربية أعقد من أن يتم حصرها في تطبيق القوانين، إلاّ إن كثيرين من الأطفال، في سان دوني، يخضعون لقانون صارم تفرضه العائلة والمدرسة والحكومة لضمان سعادتهم واستقرار حياتهم عندما يصبحون بالغين، إذ يحتاج الأطفال إلى القوانين الناظمة كي يشعروا بالأمان ويتعلموا مبادئ الواقع، على أن يتعلموها بالتدريج. وفي هذا السياق "يتم إسقاط مواصفات الوسط العائلي على الوسط الاجتماعي" (Fanon 1952, p 117). والأطفال من أصول مهاجرة يوصفون دائماً بأنهم عنيفون، ويمكن إرجاع ذلك إلى "تشريع العنف" ذي المنشأ العائلي. ففي أوروبا، وجميع البلاد الموصوفة بالمتحضرة أو المُحضّرة، تكون العائلة جزءاً من الأمة كما يقول فانون في كتابه: "جلد أسود، أقنعة بيضاء"، والطفل الأوروبي يخرج من كنف العائلة إلى المجتمع، فيجد القوانين والمبادئ والقيم ذاتها؛ وكي يتطور الطفل بشكل طبيعي،

يجب الاّ يكون هناك تباين ما بين الحياة العائلية والحياة العامة (Fanon 1952, pp. 115-116)، الأمر الذي يعني أن العائلات المهاجرة تعقّد المهمة التربوية التي تتقاسمها تقليدياً مع الدولة.

III ـ خلاصة

تتفاقم أزمة العلاقات الاجتماعية في المجتمعَين الفرنسي والفلسطيني، إذ يشتكي الشباب هناك أكثر وأكثر من الذهنية الفردية في العلاقات الاجتماعية. فالانقسامات تهشّم العلاقات في المجتمع الفلسطيني، مع أن تحصين هذه العلاقات يساعدهم في التغلب على معاناتهم. وعلى مستوى أكثر ارتباطاً بالعائلة، في كلا المجتمعين، فإن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بدّلت السيرورة العائلية: زادت الخلافات الزوجية، وزاد عدم الاستقرار النفسي، حتى إن الاستقرار الجغرافي للعائلة تأثر. وقد تدفع هذه الصعوبات الأطفال الحسّاسين إلى اتباع سلوكيات مدمرة ذاتياً، فمع غلاء المعيشة، وغياب الوالدين، يجد الأطفال أنفسهم مجبرين على كسب المال بطرق ملتوية. ■

المصادر

١ المادة ٥٩ من قانون العمل اللبناني تنص على: "يتمتّع الأجراء الأجانب عند صرفهم من الخدمة بالحقوق التي يتمتع بها العمال اللبنانيون، شرط المعاملة بالمثل، ويترتب عليهم الحصول من وزارة العمل على إجازة عمل. يُستثنى حصراً الأجراء الفلسطينيون اللاجئون المسجلون وفقاً للأصول في سجلات وزارة الداخلية والبلديات ـ مديرية الشؤون السياسية واللاجئين ـ من شرط المعاملة بالمثل ورسم إجازة العمل الصادرة عن وزارة العمل."

٢ الفقرة ٣ من المادة ٩ من قانون العمل اللبناني تنص على: "يُعفى المستفيد من اللاجئين الفلسطينيين من شرط المعاملة بالمثل المنصوص عنه في قانون العمل وفي قانون الضمان الاجتماعي، ويستفيد من تقديمات تعويض نهاية الخدمة بالشروط التي يستفيد منها العامل اللبناني."

٣ جميع الأسماء المستخدمة هي أسماء مستعارة حفاظاً على الخصوصية.

٤ مخيّما اللاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان. وقد جرى تدمير مخيم البارد بالكامل بعد اشتباكات للجيش اللبناني مع مجموعات إسلامية متطرفة، "فتح الإسلام"، الأمر الذي نتج منه نزوح سكانه إلى مخيم البدّاوي.

٥ "...لم يعرف الآباء كيف يعطونهم الأسس التي يحتاجون إليها تماماً، وهذه مهمة التربية إلى حدّ كبير، إنها التربية بالمرتبة الأولى. صحيح أنه على هذا المستوى هناك التربية في المدرسة، لكنها ليست مشابهة لتلك التي يجب أن يتلقاها في المنزل. كنا محظوظين في عائلتنا، فقد أرسلَنا والدنا مذ كنا صغاراً إلى الصحراء الجزائرية حيث نشأ وترعرع، وكنا قادرين على الانغماس في كلتا الثقافتين من دون حدود بفضل والدي، فوالدتي كانت قاسية بعض الشيء. لكن للأسف قابلت فتيات من عائلات أُخرى نشأن على هوية واحدة، المغربية أو الجزائرية، بتقاليدها كلها، وعندما يكنّ في مكان العمل أو في الشارع يكنّ منغلقات. قد يقول قائل هذه هي التربية التي تلقينها، لكن هذا ببساطة ما يجب عليهن العمل على الخروج منه إذا ما أردن التغيير. إنها التربية إلى حدّ كبير" (صوفيا).

٦ ″ بالنسبة إليّ، فإن الفضل يعود إلى والديّ، إنهما متفهمان. لم ترغب أمي في أن تعيد إنتاج النمط العائلي الذي سبق أن تمردت عليه، ووالدي، بدوره، لم يرغب في أن يتولى هو القيادة، ولذلك منحاني الفرصة للانفتاح، كانت الأوراق في يدي. عندما كنت صغيرة تعلمت العزف على البيانو، شجعتني أمي دائماً على الاستكشاف، وعدم الجمود، وكانت هي دافعي إلى الانفتاح. وهكذا سافرت وعزفت الموسيقى وقابلت كثيراً من الناس، وأعتقد أنني اليوم ما أنا عليه لأن والديّ دفعاني إلى ذلك، ومنحاني الثقة لاتخاذ جميع القرارات بنفسي، لكن هذا لا يعني أننا متشابهون، إنهما والداي فقط. والداك وإن أعطياك كامل الصلاحية، يمكن لهما أن يكونا مختلفين عنك، من دون أن يعوقا قدرتك على الخروج والانطلاق في الحياة بالشكل الذي ترينه صحيحاً، وعندها ستصلين، هذا مهم جداً″ (ميريام).

٧ ″من خلال المعاهد والهيئات الوسيطة، وبشكل أساسي بفضل المدرسة، يتعلم الأفراد الأخلاق المدنية والمهنية التي تسمح للمجتمع بالحفاظ على وحدته، وفوق ذلك تسمح لهم بالوجود كأشخاص″ (Lapeyronnie, In: Beaud, Confavreux, Lindgaard 2006: p 529).

٨ ″ إن لم يفهموا المعلومات التي تُعطى لهم، كيف لهم أن يعطوها لأطفالهم؟ وكيف سيساعد الوالدان الأطفال إذا لم يتحدثوا الفرنسية، ولم يتعلّموا كتابتها؟ على الآباء القادمين للعيش في فرنسا أن يتحدثوا الفرنسية كي يساعدوا أطفالهم، فهم في طور التأسيس، ويحتاجون إلى المساعدة في إجراءات المدرسة، وفي أداء الواجبات المدرسية، وفي تعلّم العدّ بالفرنسية، وقراءة القصص. من الأفضل بالتأكيد أن يتحدّث الأبوان اللغتين، لكن يجب أن يكون هناك علاقة جيدة ما بين المدرسة والمنزل، ولإيجاد هذه العلاقة يجب أن يتحدث أحد الأبوين الفرنسية، وأن يتم تجاوز عقدة اللغة....أعتقد أن عدم قدرتك على التعبير عن نفسك بشكل صحيح يجعلك تشعر بسوء المعاملة، لأنك لا تعرف بالضبط كيف تعبّر، وكونك لا تتمكن من التعبير عن نفسك وترجمة أفكارك ومعتقداتك، هو، برأيي، سوء معاملة لذاتك أيضاً. أنت لا تتمكن من التعبير لأن الآخرين لا يفهمونك، وعندها يضيع الرابط معهم″ (ميريام).

٩ يعتمد الخروج من الورطة على ″كيمياء معقّدة ما بين مؤثرات موضوعية، وخصوصاً العون الخارجي ″الذي يمكن الحصول عليه، وبين مؤثرات شخصية، كطريقة تعايش المرء مع العالم ومع نفسه (Blondel, In: De Gaulejac, Taboada - Leonetti, 1997, p 133).

المراجع

بالعربية

- حنفي، ساري (صيف ٢٠١٠). ″الحقوق المدنية للفلسطينيين في لبنان: الحملة والحملة المضادة″. ″مجلة الدراسات الفلسطينية″، العدد ٨٣، ص ٣٠-٤٣.

بالإنجليزية

- Barus- Michel, Jacqueline and Florence Giust- Desprairies (sous la direction), (1998). *Scène sociale: crise, mutation, emergence*. Paris: ESKA, p. 181.
- Beaud, Stéphane and Joseph Confavreux and Jade Lindgaard (sous la direction), (2006). *La France invisible*. Paris. La Découverte, p. 647.
- Bourdieu, Pierre and Jean-Claude Passeron (1970). *La reproduction*. Paris: Minuit, p. 279.

- **De Gaulejac, Vincent and Isabel Taboada - Leonetti (1994), (1997). *La lutte des places*. Paris: Hommes et perspectives, Coll. Reconnaissances.**
- **Durkheim, Emile (1897), (1967). *La division du travail social*. Paris: PUF. 8ème edition, 1ère éd., p. 416.**
- **Fanon, Frantz (1952). *Peau noire, masques blancs*. Paris: Seuil, Coll. Points, p. 189.**
- **Hanafi, Sari (2006). "Vivre dans le camp, vivre ailleurs: Les Palestiniens réfugiés en Egypte et dans les Territoires palestiniens", *Géographies: Bulletin de l'Association des Géographes Français*, vol. 83, no. 1, pp. 76-92.**
- **Mendel, Gérard (1998). "Peut-on répondre à 'la crise' sans modifier la structure des organisations?" In: Barus - Michel and Giust - Desprairies, op.cit., pp. 77- 89.**
- **Mercier, Lucie and Jacques Rheaume (sous la direction), (2007). *Récits de vie et sociologie clinique.* Canada: les presses de l'université Laval, p. 347.**
- **Paugam, Serge (2008). *Le lien social*. Paris: PUF, p. 128.**
- **Raad, Lina (avril 2009). "Mixité sociale et pratiques des couches moyennes dans le centre de Saint-Denis, les conditions de l'ancrage et de la mixité". *Saint-Denis au fur et à mesure*, no. 53, pp. 30- 43.**
- **Strauss, Murray A. (1991). "Discipline and Deviance: Physical Punishment of Children and Violence and Other Crime in Adulthood". *Social Problems*, vol. 38, no. 2, pp. 133-152.**
- **Ugland, Ole (ed.), (2003). *Difficult Past, Uncertain Future: Living Conditions Among Palestinians Refugees in Camps and Gatherings in Lebanon*. Oslo: Rapport Fafo, no. 409: http://www.fafo.no/pub/rapp/409/409.pdf.**
- **Vondra JI. (1986). "Socioeconomic Stress and Family Functioning in Adolescence". In: J. Garbarino and C. Schellenback et al. (eds.). *Troubled Youth, Troubled Families: Understanding Families At-Risk for Adolescent Maltreatment*. New York: Aldine, pp. 191–233.**
- **Walker, L. (1986). "Battered Women's Shelters and Work with Battered Lesbians". In: L. Kobel (ed.). *Naming the Violence: Speaking Out about Lesbian Battering*. Seattle: Seal Press.**

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مذكرات محام فلسطيني

حنا ديب نقارة

محامي الأرض والشعب

تحرير

عطا الله سعيد قبطي

٣٨٥ صفحة ١٢ دولاراً